الأنا والآخر في الأدب الجزائري المعاصر- رواية الطرحان أنموذجًا

The I and the Other in Contemporary Algerian Literature - Al-Tarhan's Novel as a Model

د.نعيمة بن الشريف
جامعة مولود معمري تيزي وزو(الجزائر).
العنوان الالكتروني: **bencherifn19@gmail.com**

تاريخ الإرسال: 22/09/ 2022 تاريخ القبول: 2022/10/23 تاريخ النشر: 2022/12/13

ملخص:

عالجت الدراسات الثقافية والاجتماعية والأدبية والنفسية قضية الأنا والآخر، نقدًا وتحليلًا وتفسيرًا، وخلصت إلى وجهات نظر مختلفة نظرًا لاختلاف المنطلقات التي انطلقت منها، والمناهج التي اتبعتها في تلك الدراسات، وفي هذا البحث نحاول الاطلاع على الأنا والآخر في الأدب الجزائري المعاصر رواية الطرحان أنموذجًا محاولين إيجاد إجابة للتساؤلات التي وضعناها في مقدمة البحث.

ومن جملة النتائج التي توصلنا لها أنه في الأدب المعاصر العربي والأفريقي والجزائري تناولت الروايات الاستعمار الأوروبي كآخر وقامت بنقده، أضف إليه أن الرواية الجزائرية تبنت كغيرها من الروايات الشرقية التي ألفها مشارقة دحض نظرة ومفهوم الإمبريالية الأوروبية عن تدني الشعوب الإفريقية والآسيوية، واستنكار أنها لا حضارة لها، بالالتفات إلى تنوير جوانب من تاريخها وثقافتها.

كلمات مفتاحية: الأنا، الآخر، الرواية الجزائرية، الثقافة، الطرحان.

Abstract:

Cultural, social, literary and psychological studies have dealt with the issue of the ego and the other, with criticism, analysis and interpretation, and concluded with different points of view due to the different premises from which they were launched, and the approaches they followed in those studies. For the questions that we put in the introduction to the research.

Among the results we have reached is that in contemporary Arab, African and Algerian literature, the novels dealt with European colonialism as another and criticized it, in addition to that the Algerian novel adopted, like other oriental novels written by Masharqa, refuting the view and concept of European imperialism about the decline of African and

Asian peoples, and denouncing that it has no civilization. Turning to enlightening aspects of its history and culture.
Keywords: the ego, the other, the Algerian novel, culture, Al-Tarhan's

1. مقدمة

العديد من الدراسات أُجريت حول ثنائية الأنا والآخر في العلوم الإنسانية؛ خاصة منها التاريخ وعلم الاجتماع الثقافي وعلم النفس والأدب وعلى وجه الخصوص في الأدب المقارن، والنقد الثقافي، والسرديات الحديثة والمعاصرة جنس الرواية خاصة تلك التي طرقت موضوع الإمبريالية الثقافية والاستعمار الأوروبي في دول العالم الثالث، ووقفت عند رهانات العولمة والغزو الثقافي، والتثاقف والتنوع الثقافي وحوار الحضارات، والتواصل الاجتماعي والثقافي، وانعكاس وتداعيات الحداثة والعصرنة على ثقافة الشعوب، وحاولت أن تدرس صورة الآخر، وتفاعل واستجابة الأنا لمثيرات ومحفزات ثقافة وحضارة الآخر، سنحاول في هذا البحث إجراء دراسة نقدية ثقافية لرواية من الأدب الجزائري المعاصر هي رواية الطرحان محاولين الكشف عن سردية الأنا والآخر، والوقوف عند صورة الانفتاح والتواصل الثقافي والحضاري مع الآخر فيها بحثًا عن إجابة على التساؤلات الآتية: ما هي صور الآخر التي وردت في رواية الطرحان؟ وما طبيعة الانفتاح على الآخر فيها هل كان عقلانيًا؟ أو ذوبانًا وتماهيًا حد الانسلاخ من الهوية الأصلية والتخلي عن القيم والموروث الثقافي التراثي المحلي؟ هل كان انفتاحًا للتبادل والتحاور والمشاركة مع الآخر لأجل إثبات الذات أم لنقدها ووسمها بالدونية في مقابل تقديس ذات الآخر؟ أي موقف تبنته من الآخر؟ أي مستقبل استشرفته لحياة البشر في المعمورة في ظل التنوع الثقافي؟

2- العولمة والآنا والآخر في الثقافة والأدب

شهدت المجتمعات العربية خطرًا طرحته العولمة على مستوى الوجود الذاتي لأفرادها؛ "بوصفهم ينتمون إلى أمة كونية لحضارات متعددة؛ وعقب الوعي بتلك الوضعية أخذت دولها تولي مسألة الثقافة اهتمامًا تطور تدريجيًا، فالثقافة تعتبر المكون الأساسي لوجدان أي مجتمع، وتعبر عن العمق التاريخي والمتراكم في المجتمع، كما تعبر الثقافة عن الهوية والانتماء الوطني؛ وبالتالي فالضرورة ملحة على التواصل الثقافي، وعدم تحويل نمط الحياة في المجتمعات العربية إلى نمط غربي، ولأن وجودنا الثقافي في المعترك الحياتي سيكون بمثابة الحصن الذي يحفظ خصوصيتنا، وهويتنا من خلال التفاعل مع المناخ الحضاري العالمي وإثبات الهوية الثقافية العربية أمام الآخر، وتحويل ثقافتنا من ثقافة استهلاكية إلى ثقافة منتجة مثل مثيلتها من الثقافات الغربية،"**(ينظر: بولشعب حكيمة(2018)، ص07)**وعلينا ترسيخ ذهنية التمسك بموروثنا الثقافي العربي، والاستفادة من تجارب غيرنا من المجتمعات، والاستعانة بمستجدات

العولمة لخدمة تراثنا، لا القضاء عليه، لأن في تخلينا عنه انسلاخ عن أصالتنا، وقطيعة مع ماضينا؛ ما يعني تهميش الذات العربية، وضياعنا وذوباننا في ثقافات أخرى وابتعادنا عن واقعنا، وعن استثمار الطاقات الكامنة التي خلفها لنا أسلافنا، لتعيننا على بناء حاضر مزدهر واستشراف مستقبل دون أزمات تعرقل التنمية في القطر العربي.

غير أن العولمة وما تنطوي عليه من مخاطر الاختراق الثقافي والاجتماعي بأهداف تقوم على "خدمة مصالح الدول المتقدمة لم تعمل على إنتاج الذات الواعية التي تكتسب ميزات تجعلها قادرة على العيش وسط هذا العالم الذي استحال بفضل الثورة التكنولوجية والمعلوماتية إلى قرية كونية ألغت من قاموسها الزمان والمكان وأعدمت التاريخ والجغرافيا ودخلت في علاقة تفاعلية تداولية مع الآخر".**(كمال شلغين عهد(2015)، ص 05، بتصرف)**

وحاليًا نجد هاجس الخصوصية الثقافية هو نفسه هاجس الأصالة والمعاصرة ، وإثبات الذات أمام الآخر في ظل الغزو الثقافي معًا، و"محاولة العولمة تنميط سلوكيات البشر وثقافتهم في المجتمعات كافة؛ وإخضاعها لقيم وأنماط سلوك سائدة في ثقافات معولمة، أمر يحمل إمكانية تفجير أزمة الهوية، التي أصبحت من المسائل الرئيسية التي تواجه المجتمعات الإنسانية على المستوى العالمي، هذه الأزمة التي شحنت الرغبة لدى العصبيات والأقليات القبلية والطائفية والقومية في البحث عن الجذور وحماية الخصوصية المجتمعية".**(ينظر: بولشعب حكيمة(2018)، ص 01)**والواقع يشير إلى أن في أكثر من موطن وبلد في العالم نوع من «"هستيريا الهوية"ويتمثل ذلك في عدم اندماج الفرد بسهولة وبشكل طبيعي، كما كان الأمر في السابق في علاقاته مع الأسرة والعمل مع الجماعة والأمة»**(وارم العيد(2018)،ص05)**والشعور بالاغتراب، والإحباط من الصراع مع الآخر في سبيل إثبات الهوية الذاتية، خاصة الشعوب الفقيرة ومثيلاتها التي خربتها الحروب، وانتشار وهّم الهويّات المسيطرة هي هويّات الدول القوية والمهيمنة والمتقدمة علميًا وتكنولوجيًا.

عود على بدئ، ثنائية الأنا والآخر أشكالًا عديدة"يعبر بها عن ذاتين متغايرتين منها: الذات/الغير، الشرق/ الغرب، الشمال/ الجنوب، الحب/الكره، الصداقة/ العداوة، التواصل/الصراع، التفاهم/الاختلاف، الأهلي/ الأجنبي، المطلق/النسبي، المحكم/ المتشابه، الإيمان/الكفر، العنف/التسامح، المسلم/ المسيحي(أو اليهودي أو الملحد)، غالب/مغلوب، متحضر/متخلف،.....إلخ.

هذه الثنائيات نجدها مبثوثة في ثنايا الثقافة الإنسانية لاعتبارات دينية وتاريخية وجغرافية، إذ يغدو الأنا رمزًا للوطنية المسحوقة والمقاومة؛ في مقابل الآخر الذي هو رمز التعدي والهيمنة العسكرية

والسياسية والاقتصادية والثقافية."**(صوافي بوعلام(2014- 2015م)،ص 19، بتصرف)** خاصة في المجتمعات التي تعرضت للاستعمار، وتم فيها قهر السكان الأصليين والإجحاف في حقوقهم، وتدمير أرضهم والاعتداء عليهم بالسلاح من أجل رفاهية المستعمر.

ونجد الآخر مفهوم يمكن "تقصي أصوله الأولى في أعمال هيجل، ويوجد في مختلف الاتجاهات الفكرية التي تعالج نظرية المعرفة، وفي مسائل الهوية الثقافية وفي التحليل النفسي، ومن بين الكتابات التي عالجت هذا المفهوم ما كتبه لاكان، وما كتبه سارتر في الوجودية، وما كتبه دريدا، وما كتبه إدوارد سعيد من تحليل لما قامت به أوروبا الاستعمارية من دراسة للثقافات الشرقية، ويمكن وصف مصطلح الآخر بأنه يمثل شكلًا من أشكال التصور الثقافي للأفكار والمفاهيم، إذ يمثل هذا التصور أساس بلورة هويات الذوات الثقافية من خلال إحدى علاقات القوة السياسية التي يكون فيها الآخر هو الطرف الخاضع، وإن ما قام به الاستشراق في ادعائه معرفة الشرقيين هو أنه بوصفهم الآخر بالنسبة للأوروبيين بأنهم لا عقلانيون وغير متحضرين، ولم يزودنا بتعريف للهوية الشرقية الفعلية إنما قدم لنا الهوية الأوروبية على أساس تعارضها مع ذلك التصور للهوية الشرقية."**(أندرو إدجار وسيد جويك(2014)، ص 46- ص47، بتصرف)** على أساس ما كان يطمح له المستعمر من نشر لثقافته في مجتمعات ما وراء البحار؛ التي بذل كل جهوده في تشويه صورتها، وغلق كل منافذ النور العلمية والثقافية التي كانت تحفظ هويتها؛ ومقوماتها الوطنية ضد الاجتياح الجغرافي والعرقي والثقافي، الذي تعمد المحتل إن يقهر به شعوب المستعمرات قهرًا نفسيًا واجتماعيًا واقتصاديًا؛ ووصفهم بقابليتهم للاستعمار، ونسب عقدة النقص إليهم، وبزعمه أوروبا هي مصدر الحضارة التي جاءت لتفتح آفاق التنوير المعرفي وتنقل الحضارة لتلك المجتمعات المتخلفة الرجعية! بل العكس تمامًا شعوب المستعمرات كانت لديهم حضارات وتاريخ عريق ومنابر ومنارات للعلم ولهم ثقافتهم الخاصة بهم؛ وعلومهم أسهمت في تطوير العالم، ومخطوطاتهم ومؤلفاتهم العلمية التي سرقها وسلبها الاستعمار الأوروبي ودرسها في جامعاته ومعاهده أكبر دليل على حضارتهم وثقافتهم وعلومهم التي رام الاحتلال طمسها، وإفشاء الجهل والأمية فيهم بمحاربته العلماء وشيوخ المساجد وغلق المدارس وإحراق المؤلفات التاريخية والدينية والثقافية والعلمية...وغيرها.

وقد أخذت العلاقة بين الأنا والآخر ومحدداتها أهمية بالغة وكبيرة في الدراسات النقدية المعاصرة "لكونها جدلية وجدت بشكل أو بآخر منذ وجد الإنسان على الأرض، فالعالم تتنازعه إرادة البقاء في مقابل إرادة الهيمنة التي تريد افتراس الهوية وسلبها وتعويضها بهوية أخرى، هذه الإشكالية تجد لها صدى في الثنائيات السالفة الذكر والتي تحوم حول حب التجاوز/ظاهرة التفرد والعبقرية، أو صعود الأنا وأفول

الآخر كما يقول المفكر العربي "حسن حنفي" الذي يرى المحددات التي تحكم العلاقة بين الأنا والآخر تتوزع على ثلاث جبهات "إعادة بناء التراث هي الجبهة الأولى التي يعاد فيها رسم مسار الأنا، الجبهة الثانية التراث والتجديد" وهي تحديد الموقف من الآخر- الغرب، والجبهة الثالثة وهي موقفنا من الواقع المباشر، الحاضر الراهن، وبينما نأخذ الجبهة الأولى من السلف، والثانية من الغرب، فإن الجبهة الثالثة هي مناط الإبداع كما أنّ الجبهتان الأخريان تصبان فيها." **(صوافي بوعلام،(2014-2015م)، ص23- ص24، بتصرف)** ونتيجة الغزو الثقافي؛ أصبح العالم في صراع جديد هوياتي، وصارت الهويات الأصلية تصارع من أجل الصمود أمام الهويات المهيمنة التي تسعى للسيطرة عليها.

3- **الأنا والآخر في الأدب الجزائري المعاصر**

يجدر بنا- حين قراءة صورة الآخر وفهمها في الأدب الجزائري المعاصر -التنويه إلى حالات فهم وقراءة الآخر ثقافيًا في الأدب خاصة المقارن منه وغيره من الدراسات الأخرى وهذه الحالات هي:

"1- الحالة الأولى التشويه السلبي ويكون ذلك في حالة العداء للآخر؛ حيث تؤدي العلاقات العدائية بين الشعوب إلى تكوين صورة سلبية عن الآخر المعادي، نظرًا للمشاعر العدائية وسوء الفهم لذلك لن يسمح بسماع صوت الآخر المعادي، فيبرز الواقع الثقافي الأجنبي في مرتبة أدنى من الثقافة المحلية وبذلك تواجه علاقات وصور سلبية يمكن أن ندعوها بالتشويه.

2- الحالة الثانية التشويه الإيجابي: وفيها يرى الكاتب أو جماعة الدارسين الواقع الثقافي متفوقًا بصورة مطلقة على الثقافة الوطنية الأصلية؛ لذلك نجدها على نقيض الحالة الأولى تعد نفسها في مرتبة أدنى، فيترافق التفضيل الإيجابي الأجنبي مع عقد نقص تعاني منها الذات تجاه ثقافة الآخر وأسلوب حياته، فنجد أنفسنا أمام كاتب أو جماعة من الكتاب يعانون من حالة من الهوس والانبهار بالآخر، وبذلك يقدم الوهم في صورة الأجنبي على حساب الصورة الحقيقية له؛ وهو ما يمكن تسميته بالتشويه الإيجابي.

3- الحالة الثالثة: التسامح: تنطلق فيها دراسة الآخر من رؤية متوازنة للذات والآخر، لذا نجد التسامح هو الحالة الوحيدة للتبادل الحقيقي، إذ يطور تقويم الأجنبي وإعادة تفسيره عبر رؤية موضوعية؛ تنظر للآخر باعتباره رفيقًا فينتهي الهوس والانبهار، فالتسامح يحتاج إلى نضج فكري يقوم على تأمل وتمثل لا على استيراد الأفكار والمعطيات الأجنبية وبالتالي يحتاج إلى حوار دائم بين الذات والآخر بعيدًا عن العقد النفسية." **(ربيعي هجيرة (2019-2020م)، ص36- ص37،بتصرف)** والاقتناع الأعمى بالأفكار المستوردة من ثقافة مغايرة لثقافة الذات الأصلية أي تبعية لاعقلانية لثقافة الآخر، وانبهار بمرجعياته حد الذوبان والانسلاخ من الهوية الأصلية، بل على العكس من ذلك الاعتماد على التعايش السلمي والتفاعل المنطقي

مع معطيات فكر الآخر، وتبادل الخبرات المعرفية وتسخير الطاقات والجهود في سبيل ما يخدم الإنسانية جمعاء بغض النظر عن أصل أو لون أو جنس أو ثقافة الأنا أو الآخر ونبذ مختلف أشكال التمييز العنصري والإقصاء والتهميش الاجتماعي والثقافي.

وتشير الدراسات والأبحاث إلى أن دراسة العلاقة بين الشرق والغرب وبين العرب وأوروبا "كانت من المحاور الفاعلة لعدد من الروايات منذ بداية عهد العرب بالرواية، إذ استطاعت الرواية أن تفرض وجودها ضمن أهم الفنون الأدبية الأخرى في العالم العربي، وذلك لاستيعابها للأسس الفنية التي يبنى عليها العمل الأدبي وارتباطها بالتحولات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية، وتربعت الرواية الجزائرية على مكانة مرموقة فمنذ ظهورها حملت صوت الأديب وآلام الشعوب التي احتلها الاستعمار الأجنبي الذي عمل على طمس هويتها، وبهذا ذاع صيت الرواية الجزائرية وبلغ الأقطار العربية."**(وافي حليمة(2016-2017م)، ص أ، بتصرف)**، وتم فيها نقد الإمبريالية الفرنسية.

ونحن بصدد الحديث عن الأنا والغيرية أو الآخر في الأدب الجزائري يجدر بنا الإشارة إلى أن "الخطاب الكولونيالي لعب دورًا حاسمًا في الربط بين سلسلة من ضروب الاختلاف والتمييز التي أثرت على الممارسات الخطابية والسياسية الخاصة بالتراتب العرقي والثقافي وتمثيل صورة الآخر في الرواية الجزائرية، وفي الصيرورة التي تم من خلالها تهميش أشكال الآخرية العرقية / الثقافية/التاريخية في نصوص أدبية ونقدية وتاريخية واجتماعية؛ التزمت الإفصاح عن الاختلاف أو التناقض لكشف حدود التمثيل الغربي لصورة الآخر، فمن خلال تسهيل العبور من العمل إلى النص، والإلحاح على البناء الاعتباطي والمتباين والمنهجي للدوال الاجتماعية والثقافية تعمل هذه الاستراتيجيات النقدية على إقلاق السعي المثالي وراء معان غالبًا ما تكون مقصودة وقومية، وبالتالي هذا الأمر يحتاج إلى مساءلة نمط تمثيل الآخرية."**(هومي.ك.بابا(2004م)، ص147-ص148، بتصرف)**خاصة تلك التي زادت من تعزيز أشكال التمييز العنصري في مجتمعات الجنوب.

حيث نجد الآخرية في الخطاب الكولونيالي "تارة مصدر رغبة وتارة أخرى سخرية، فاختلاف الثقافات الأخرى أمر يختلف عن زيادة التدليل أو مسار الرغبة، ومع أن هذين الأخيرين بحد ذاتهما، ودون أن يخضعا لنوع من إعادة البناء عن أن يمثلا تلك الآخرية، فليس ثمة انزلاق حتمي من النشاط السيميائي إلى قراءة المنظومات الثقافية والخطابية الأخرى قراءة غير إشكالية وما تنطوي عليه مثل هذه القراءات هو إرادة قوة ومعرفة تتقدم، إذ تخفق في رسم حدود حقل النطق والفعالية الخاص بها، حتى لا تفرّد الآخرية بوصفها اكتشافًا لما تنطوي عليه هذه القراءات من افتراضات مسبقة." **(هومي.ك.بابا(2004م)،**

ص151، بتصرف) عن التمثلات الدونية للآخر الإفريقي والآسيوي وبصفة عامة الذي ينتمي لجنس آخر غير الجنس الأوروبي الذي زعم أنه الأرقى، والأكثر حضارة وثقافة والأجدر بتنوير غيره من الأجناس الموجودة في العالم، لكن؛ توجد بالمقابل أعمال أدبية ونقدية قلبت تلك النظرة الإنتقاصية التي رام المستدمر الأوروبي إلحاقها بغيره في المستعمرات، وأعادت الاعتبار للذوات الأصلية وعززت شعورها بالانتماء لأمتها وحضارتها العريقة.

وفي النص الروائي يمكن أن نمثلّ بشخصية السباعي التي تعبر عن ذات تشعر بالولاء لقبيلتها وقصرها، و بالانتماء إلى منظومة الأحاسيس التي تربط بين الفرد والمجتمع، وهذا يؤسس لمجموعة من العلاقات التي تتجاوز حدود المشاعر إلى منظومة من الفعاليات والنشاطات التي يتبادلها الفرد مع موضوع انتمائه، فالسباعي حاول أن يشكل صورة مطابقة لقبيلته فيحمل روحها ويجسد معانيها ويستلهم عاداتها وتقاليدها"**(كمال شلغين عهد(2015)،ص37- ص38، بتصرف)** وكان سعيداً بتقليدها وإحيائها، وقدم في الرواية صورة مصغرة لثقافة قبيلته بكل ما تنطوي عليه من معان ومشاعر وقيم وعادات، وهذا يعني أنه حرص على أن يطابقها ويعبر عنها، وتمسك بهويته التواتية رغم المستجدات التي طرأت على حياته، والتقلبات والمصاعب التي عرفها بعد حرمانه من الإرث وفقدانه لبيته وسبخته التي كان يرتزق منها هو وعائلته؛ بمقتضى وثيقة الطرحان التي كانت مشؤومة على وجوده ومكانته ومستقبله في قصبة المأمون لأنها جردته من أملاكه حتى من السقف الذي يأويه، وفتحت عليه بابًا من المعاناة والإقصاء الاجتماعي.

والملاحظ أن الإبداع الروائي تطرق "لتعرض الوطن العربي للاحتلال وتأثير ذلك على حياة الفرد والمجتمع، وحينها لجأ الروائيون إلى تناول العلاقة بين الأنا والآخر من خلال دراسة صور لشخصيات غربية مختلفة، وحاولت الرواية المغاربية والجزائرية على وجه الخصوص أن تبلور هذا التأثير باعتبارها مرجعًا هامًا لقراءة التحولات السياسية والاجتماعية التي طرأت على المجتمع، فأنتجت نصوص روائية جزائرية تبرز صورة الفرنسي في مستوى يتلاءم فيه الخيال مع الواقع التاريخي للمجتمع الذي يَكتب عنه أو يُكتب له، ومما زاد في شهرتها أنها ترعرت على أيدي روائيين كبار فكتب محمد عرعار"ما لا تذروه الرياح" ومولود معمري"الأفيون والعصا"ومحمد ديب "الحريق" وعبد الحميد بن هدوقة "ريح الجنوب" والطاهر وطار" اللاز"وسعدي إبراهيم " المرفوضون"وغيرهم ممن نالت أعمالهم الروائية شهرة كبيرة وعرفت إقبالًا كبيرًا من طرف كبار المثقفين والنقاد الذين تناولوها بالنقد والتحليل."**(صوافي بوعلام،(2014-2015م)،ص ب، بتصرف)** ووقفوا عند تبينها الصورة الحقيقة للمجتمع الجزائري التي شوهها الاستعمار الفرنسي، وكان يصبو من خلال ذلك إلى القضاء على الهوية الجزائرية العربية الإسلامية.

نعود لنبين في هذا المقام بأن "قضية التعبير عن الأنا والآخر في الرواية الجزائرية "بدأت متأخرة عن نظيرتها العربية، ويرجع ذلك إلى انشغال الذات بالعمل على تخليص البلاد من الآخر المحتل فكان تركيزها على الأنسب من الأجناس الأدبية الأخرى مثل الشعر والمقال والخطابة، وقد اشتغلت الرواية الجزائرية في عمومها على فضح هذا الآخر عن طريق تناول موضوع الثورة وكشف الآخر الفرنسي؛ خاصة في مرحلة ما قبل الانفتاح الديمقراطي الذي عرفته الجزائر غداة أحداث أكتوبر1988م، إذ أن الاهتمام بالآخر العدو بدأت حدته تخف خاصة مع بروز الآخر المحلي في أدب الشباب، بفعل هول ما حدث من قتل ودمار، ولم يعد الماضي يثقل كاهلهم؛ لأن الآثار التي خلفها الاستعمار أخذت تتضاءل شيئًا فشيئًا، وبدأ الكتاب يتجهون صوب معالجة الواقع الجديد."**(المرجع نفسه،ص08-09، بتصرف)** فالأحداث الدامية والرعب الذي عاشه المجتمع الجزائري من الآخر الأهلي أيام العشرية السوداء، وحينها ظهر الآخر الأهلي الذي تنكر لبني وطنه وتعصب للتطرف ومواجهة الدولة بتدمير مؤسساتها وقتل الأبرياء من المواطنين، وقد عبر الروائيون في نصوصهم عن نقدهم واستنكارهم لتصرف هذا الآخر الجديد، وصوروا في أدبهم معاناة الأنا من عدوانيته، وألفت عدة روايات جزائرية في هذا السياق.

وتبدو الشخصية الجزائرية "ذات خصوصيات متفردة في مقابل خصوصيات قومية أخرى رغم الذي يجمعنا مع بعض هذه القوميات من اشتراك في اللغة والدين والبيئة، وليس ذلك نابعًا، من نظرة عنصرية تمييزية؛ بقدر ما هو نتاج معطيات تاريخية وجغرافية وسياسية واجتماعية، فالترسبات التاريخية التي عاشتها الذات الوطنية منذ القدم عملت على تشكيل بنيتها السيكولوجية والعقلية وفق محددات خاصة. إلا أن تفاعل الذات الجزائرية عبر الحقب المتوالية من تاريخها عبر عن ثقافة الممانعة والمقاومة لديها على تسلط الآخر، وعدم قبولها لممارسات الآخر ورفض مخططاته بعنف وصلابة وشدة، ولم تكن بأي حال في يوم من الأيام على استعداد للرضوخ إلى الثقافة الفرنسية وهيمنتها بكل ما تجسده من حقد وثقافة استعلائية فأصبحت مهووسة بهاجس الهوية."**(المرجع نفسه، ص03-ص04، بتصرف)** والتركيز على إعادة بعثها والدعوة إلى التمسك بها في ظل الرهانات الجديدة التي زعزعت قوامها، وما خلقته لها الحداثة وتغيرات العصر من رهانات صعبة، فرضت صراعًا من أجل إثبات الوجود الفعلي للذات؛ الذي يمكنها من رفع مستواها في هرم التراتب الاجتماعي أمام الغيرية.

4- الأنا والآخر في رواية الطرحان

كشفت لنا سردية الأنا والآخر في هذه الرواية عن وجود نمطين متمايزين في صورة الآخر حيث ظهرت صورتين متضادتين هما صورة للآخر المثالي وصورة للآخر العدو، فهي أبرزت الصراع من أجل البقاء

والاستمرار في الحياة مع الآخر الأهلي(أعمام السباعي الفضيل ولخضر، والنعيمي والطالب قلوش) والآخر الأجنبي(الرائد ديفيد جونسون، وفرنسا)، وفي صورة أكبر رسمت معالم من الصراع بين الشرق والغرب؛ وما أوصل له من حرب دامية؛ أتت على الأخضر واليابس وزجت بأبناء المستعمرات في حروب لا ناقة لهم فيها ولا جمل، ودفعوا ثمن احتفال فرنسا بالنصر في مستعمراتها، وحملتهم مكرهين على الخوض في معارك طاحنة من أجل أن تنعم هي وشعبها بالحرية وخيرات الأوطان التي سلبتها في الحرب العالمية الأولى والثانية، فرنسا التي أعطت وعود كاذبة بمنح بعض الحقوق والاستقلال لمجتمعات البلدان التي احتلها، وجرجرت أبنائهم وفرضت عليهم التجنيد الإجباري في كتائب حروبها مع دول العالم الثالث؛ خذ منها مثالًا لا حصرًا الجزائر والفيتنام التي تحدث عنها المبدع في روايته هذه، فالبطل السباعي وصديقه الحساني؛ وأبناء الجزائر الذين وضعتهم فرنسا في مقدمة صفوف القتال مع شعب الفيتنام كانوا ضحية لحرب لم يجنوا منها سوى الموت، وورث عاهات مستديمة قضت على آمالهم بالعيش في سلام وحرية كغيرهم من الشعوب المستقلة الأخرى.

أ- الأنا والآخر المثالي

الجدول الموالي يوضح لنا الأنا والآخر المثالي الذي قدم من وجهة نظر الروائي صورة عن التعايش السلمي بين الأنا على تنوعه مع الآخر الرفيق والصديق في المكان والزمان والجغرافيا:

الأنا	الآخر المثالي
قصبة هنو	مدرسة الشيخ مولاي أحمد الطاهري
السباعي ولد نجوم	الياقوت بنت النعيمي
مسعود ولد الدهاجي المدعو بازا	عيشة مباركة
الحسان ولد مولاي الشريف المدعو الحساني	الخادم
الشلالي	مروشة
الشيخ مولاي أحمد الطاهري	أحمد الكعوي
المخزن البراني	دكانة العزاب
سبخة عومر	سبخة التهامي
نادين	تولوز
الجزائر	الفيتنام

الفيت ميت	هوتشي منه
الفيتنام	هانوي
السباعي	دالاماتشو وسولونغ
المسلمون في فيتنام	تقي الدين المولوي

أبرزت القراءة الاجتماعية والنفسية لحياة البطل وأهل قصره في الرواية الاضطهاد والانزلاق من قمة هرم الحياة المجتمعية القروية؛ أو بالأحرى في المجتمعات الصحراوية التي تعتمد على الميراث في التصنيف في سلم الرقي الاجتماعي، والوجود الفعلي ضمن طبقات الذوات المهيمنة في المجتمع، إذ يغدو مُلَّاك الأراضي الشاسعة والبساتين والسباخ وحبات الماء في الفقارات أرقى طبقات المجتمع العليا؛ التي تصنع القرار ولها سلطة الحكم، وكلمتها هي التي تسري على غيرها من طبقات المجتمع سواء منهم الأسياد أم العبيد، وتتحكم في المجال المجتمعي والجغرافي، وبينت الرواية كيف أن المصلحة الذاتية والأنانية البشرية في حب التملك تضرب عرض الحائط بالخصال الإنسانية النبيلة، والورع والمواثيق والعهود وبضع نقود وما يسد الجوع زمن النكبة الغذائية(عام الغلاء كما سماه الروائي) يعصف بمصير عائلات ضعيفة؛ لا تلقى سندًا أو شفقة أو رحمة لا من قريب ولا بعيد، وتبقى هينة تعاني الويلات في سبيل العيش، وصراع البقاء يضع مصيرها على كف عفريت، ويفتح عليها بابًا من المعاناة يُحملها التبعية للأسياد في المجتمع، ويقهرها بعناء وتعب يندى له الجبين، وأشدها قسوة ومرارة وثيقة الطرحان التي وهبت أملاك السباعي للنعيمي وجعلته يتكبد تبعات النكبة التي حلت بالقصبة ولا يد له فيها!، هي الحياة صعبة في الصحراء العجاف؛ ويزيدها صعوبة ندرة المال وغياب الجاه والألقاب والمكانة السامية، وقانون الغاب الوجود للأقوى، وبتتبعنا لمسار حياة البطل في الرواية لاحظنا أن حظه كان عاثرًا، وأصيب بنكسات قاهرة حرمته من متعة العيش الكريم، وشهود لحظات من الفرح كان يكافح ويناضل فيها هو وأسرته الصغيرة وأصدقائه بالجهد والنفيس في ذلك الزمان والمكان ولكن أنى له ذلك؟ وهو يعاني الحرمان وضاعت منه الوجاهة بموت جده وإقصائه وتهميشه من طرف عائلته في الدار الكبيرة والمجتمع، وفيما يلي نبين بعض عوامل معاناته التي حسب وجهة نظرنا كانت لها صورتان تفصيلهما في ما يلي:

معاناة السباعي في صورتها الأولى وظروفه القاسية سببها عاملين:

الآخر الأول موت أبيه

الآخر الثاني أعمامه والطرحان

معاناة السباعي في صورتها الثانية لها عدة أسباب:

حنان الأب الغائب

سرقة الصعاليك للبيدر وما فيه من قمح وغيره

موت جده أحمد الكعوي طرده وعائلته من المخزن البراني مرض أخته النايرة

كما أظهرت لنا رواية الطرحان معاناة البطل السباعي وأسرته جراء حرمانه من الميراث وتكالب أعمامه عليه بمساعدة الطالب قلوش بعد وفاة أبيه وجده أحمد الكعوي؛ فكان حاله تمامًا كما عبر عنه بالمقطوع من شجرة لاحق له في الميراث ويا لها من مصيبة حلت به وبأسرته، جاء في الرواية:«**قسمت التركة مناصفة بين الأخوين، وتُرك المقطوع من الشجرة للعراء، لا رجال تُنجد، ولا حبال تجذب من بئر التشفي، وجاءني الطالب قلوش إلى المخزن البراني، وطالبني أن أخليه، ومن ساعتها صار كل ما تركه جدي من عقار وماشية محرّمة علي، وكأنني لا أعرف قريبًا، وكأنني شخص غريب من العائلة.**

رمي عمي الفضيل قش أمي وأختي خارج الدار الكبيرة، ورمى عمي لخضر أغراضي من المخزن البراني ولم أعد أملك طوبة أو سقفًا خرجت أمي وأختي النايرة، فتبعتهما زايدة وذهبن لمنزل بازا الذي كان أشبه بالخربة منه للدار»(كروم عبد الله(2022م)، ص55)طحنت الظروف المعيشية القاسية السباعي أثناء هذه المحنة التي ألمت به وبعائلته، وأجبرته على العيش مع صديقه بازا في دكانة العزاب، والعمل عند النعيمي في بستانه مقابل الأكل، وعلى سبيل المثال وضحت الرواية جشع الطرف الآخر(عماه الفضيل ولخضر) وحب التملك لديهما، والاستيلاء على الدار الكبيرة والمخزن البراني والبساتين والسباخ والماشية وحبات الماء في الفقارة التي تركها الجد الكعوي، أدى إلى خلق أزمة خانقة لبطل الرواية، ومعاناة صعبة لم يسلم من تبعاتها وجرت عليه الإذعان لقانون الطرحان، والاستلام لشروط «**الشريف النعيمي الذي أقرضه سلفة وفرض عليه الموافقة على شرطين مغلظين أحدهما أكبر من الآخر الأول أن يكون السلف بحضور الطالب قلوش وزمامه والثاني أن نذعن لقانون الطرحان»(المرجع نفسه، ص83)**، وهنا كانت القوة والرقي في هرم السلطة الاجتماعية عائقًا آخر جابه السباعي وشكل له طرفًا في معادلة غير متكافئة؛ من جهة سلطة وقوة أعمامه ومن جهة أخرى سلطة وقوة الشيخ النعيمي والطالب قلوش وما تفرضه تعاليم زمامه أو الطرحان، ولم يكن للسباعي من ملاذ سوى الانصياع والخضوع لتلك الرهانات الجائرة، التي طالما ألحقت الأذى والنكد بالضعفاء في المجتمع التواتي وغيره من المجتمعات، وحاول الكاتب في هذه الرواية أن يقف عند نقد صورة من صور الظلم الذي تعرض له الفقراء وعامة الشعب، ظلم شارك فيه القضاة وشيوخ القصور ومَنْ كانوا يشهدون من الأئمة على كتابة الزمام أو وثائق ملكية الأراضي وحبات ماء الفقارة والسواقي، ولم يردعهم عن ذلك إيمانهم أو خوفهم من الله، ولم ينتهوا عن صنيعهم ذلك لا بورع مكانتهم الدينية أو الاجتماعية، ظلم مسكوت عنه وجُبرت القوم آنذاك على الرضوخ له، خلا الشاعر مولاي عبد الله الهبلاوي كما ذكر الروائي هو الذي وقف لهم بالمرصاد وفضحهم ما

جعلهم يتراجعون قليلًا عن مكرهم آنذاك، ولكن الحقيقة السائدة تثبت أن سلطة الأسياد والرشوة إلى الآن جعلتهم يخرسون عن النطق بالحق ويتخاذلون مرات عدة في إرجاع الملكية في مواثيقهم لأهلها الأحق بها، وإلى يومنا هذا نجد منهم المزورين ومن يشهدون مع صاحب الجاه والمال ويأكلون حق الضعيف والمغلوبين على أمرهم.

ب- موقف الأنا(السباعي) من الآخر(المرأة التو اتية)

قدم الروائي في هذا الأثر الأدبي صورة إيجابية للآخر(المرأة التواتية) في مقابل الأنا الرجل(السباعي) في المجتمع التواتي وأنصفها، وعبر عنها بإنسانية سواء كانت تعني بالنسبة إليه أمًا أم أختًا أو زوجة أو حبيبة أو صديقة، فوالدة البطل السباعي وأخته النايرة وحبيبته الياقوت وبنات عمه الزهراء وحدهم وخلاصهم وأمهات صديقيه بازا والحساني حظين بالاحترام والمحبة، والتقدير والمساعدة في البيت والبستان، وبقية الأعمال التي كن يقمن بها، وأبرزت الرواية سردًا مثاليًا عن "المرأة في قصور توات (أدرار) شأنها شأن النساء الريفيات في العالم لها دور في مؤسستها الصغيرة(البيت أي الأسرة) فهي تقوم بأدوار متعددة منها الإنجاب، الإنتاج إذ تربي أطفالها وتعد الطعام كالخبز وتحضر الكسكسي، وتغزل الصوف وتقوم بنسجها، وتصنع الأواني الطينية، أضف إليه أنها تعمل في البستان جنبًا إلى جنب مع الرجل، وتفوقه أحيانا في الإنجاز، فهي تقطع الحشائش الضارة وتسقي المحاصيل وتجني بعض الغلال لتعد منها الأكل لأسرتها كما تجمع العلف لتطعم به الأغنام التي تربيها، تقوم بكل هذا ولا تتذمر بل تجد في ذلك متعتها وسعادتها، والحياة الاجتماعية للمرأة التواتية غنية بغنى موروثها الشعبي والحضاري وتنوع طبوعها الفولكلورية وتعدد عاداتها وتقاليدها الضاربة في أعماق الذاكرة التواتية والتي تلون حياتها بألوان المحبة والسرور وفعل الخير، وتعطيها مذاقًا حلوًا، لا يمكن التخلي عنها أو إهمالها عبر التربية الأسرية والتنشئة الاجتماعية فهي بذلك تضع سر وجودها وحقيقة أحلامها في الحياة."**(بوصفصاف عبد الكريم(2016م)، ص 09- ص10، بتصرف)**ودرج الكاتب على إيراد أبيات من شعر طبل الشلالي عن المرأة تعمقت في وصف المرأة، والتعبير عن حبها والهيام بها وخلقت جوًا من البهجة والسرور والمدح؛ يتخلله تصوير عشق السباعي للياقوت وبازا لعيشة مباركة والحساني للخادم، عشقًا كان بريئًا على طريقة المجتمع الصحراوي المحافظ، وطريقة الرجل الشرقي المحب للحياة في سلام وأمان دمره له الاستعمار الفرنسي؛ بفرضه التجنيد الإجباري على الجزائريين وزجهم في حرب ضروس أحرقت الأخضر واليابس، حتى أبطال رواية الطرحان خاضوها وجرجروا إليها من زفة الفرح التي لم يشهدوا من نعيمها فرحًا إلا يوم الخطبة فقط «**أقمنا ليلة خطوبة زاهية على أنغام طبل الشلالي، امتدح الحساني الخادم صافية البسام، واكتوى بازا بجمرة عيشة**

مباركة وطغى خيال الياقوت عليّ بين دخان الشاي وهو يتصاعد من الإبريق، وأسلمنا أنفسنا للتيه في عوالم الشلالي، وهو يفصل صور الجمال ومفاتنه، ...»(كروم عبد الله(2022م)، ص81)« والحق أن المرأة التواتية اليوم تشكل قوة اجتماعية فاعلة ومشاركة تثبت ذاتها بصورة جماعية يومًا بعد يوم من أجل تعزيز مكانتها في مجتمعها وعالمها المتغير.»(**بوصفصاف عبد الكريم(2016م)، ص11)** على الرغم من أنها تعاني في بعض القرى والقصور من الأمية والجهل، ولكن هذا لا يمنعنا من الإقرار بأن الوضع تحسن عن سابقه حاليًا، فقد دخلت المرأة لتتعلم، وفتح أمامها سوق العمل في مختلف المهن ليس بالضرورة الحرف التقليدية بل نجد من هن من أثبتت وجودها حتى في مجال السياسة، والانتخابات وغيرها من مجالات الحياة الأخرى التي كانت سابقًا حكرًا على الرجال.

ج- صورة الأنا /الآخر العدو الأهلي والأجنبي (الشرق/الغرب، القوة/الضعف، إفريقيا وآسيا/ الاستعمار الأوروبي، الجزائروالفيتنام/ الاستعمار الفرنسي)

بالتمعن في ثنايا رواية الطرحان وجدنا صورة أخرى من صور الآخر في مواجهة الذات أو الأنا الأصلية، فإن حاولت صورة الآخر المثالي التعايش السلمي مع الأنا، فإنّ صورة الآخر العدو قد فتحت باب الصراعات والنكسات والقهر والاستبداد على مصرعيه أمام المستعمر الأوروبي، وفي هذه الرواية حاول الكاتب أن يصف مظهرًا من مظاهر علاقة الشرق بالغرب؛ متحدثًا عن سلطة القوة لدى **الآخر الاستعمار الفرنسي** في المستعمرات فتلك العلاقة لم تكن علاقات إنسانية إنما كانت علاقات هيمنة وسيطرة إمبريالية اتسمت فيها«علاقات القوة وشروطها في ضوء فعلها وفعالياتها الثقافية بالثقافة الأوروبية، فكل ظاهرة ثقافية لها شروطها وخصائصها، وثقافة المراكز الاستعمارية لم تكن إنتاجًا طارئًا؛ وإنما كانت تحمل وقّعًا خاصًا، كما هو حالها وهي تسرد حركة التوسع والانتشار خارج أوطانها» **(الموسري محسن جاسم(2005م)، ص177- ص178)** في حرب إبادة جماعية استنكرها الأهالي في المستعمرات حتى الروائي عبر عن رفضه لها وكرهه لبشاعتها وظلمها للإنسانية وخلقها للتميز العنصري «**في المعسكر في الفيتنام اكتشف الفوارق بين المجندين العرب والجنود من أصول فرنسية لم نكن في القيمة سواء أجل سكن الغربيون منازل تليق بالدرجة الأولى من المجندين، بينما كان نصيبنا الخيام التي تساوى فيها كل مجند عربي حتى أولئك الفنانين والمسعفين والطباخين وغيرهم، وتحولت العقيدة في المعسكر إلى أن كل واحد مهما كان دوره في البعثة فهو مجند ويحمل السلاح ويشارك في الأعمال القتالية وهذه الأسباب زادت من رفضي لهذه الحرب التي لا عيرلي فيها ولا نفير(وأخرجتني من مواسم الأفراح لتلقي بي في أتون الأقراح في لعبة الأمم القذرة في رحى الحرب لتطحن عظامي وأيامي وأحلامي)...»(كروم عبد**

الله(2022م)، ص191)حرب حطمت البلدان، وقضت على السلم والأمن، وأنتجت الأسلحة والعتاد المدمر للإنسان والجغرافيا والتاريخ والحضارة، والجدول الموالي يبين لنا الأنا في مقابل الآخر العدو ، وقد تنوع الآخر وجلب أذى متنوعًا للأنا:

الأنا	الآخر العدو
الشرق	الغرب
إفريقيا وآسيا	الاستعمار الأوروبي
الجزائر	الاستعمار الفرنسي
الفيتنام	الاستعمار الفرنسي
السباعي	عماه الفضيل ولخضر وزوجة عمه الخنتة
النايرة	الخنتة
البساتين والسباخ	الجراد
قصبه المامون	الصعاليك
سكان القصبة وتيطاوين	القائد الذي عينه الرومي(فرنسا)
نادين(نارا دي بورمون)	ديفيد جونسون
السلم	الحرب
هوتشي منه	ديفيد جونسون وجنوده

وفي نظرنا فإن وجهة نظر المبدع قد اتفقت في القراءة الثقافية لإلقاء الضوء على صراع البقاء والوجود في ظل هيمنة التفاوت في القوة بين الشرق والغرب أو الغرب والعرب وغيرهم من الشعوب مع أفكار إدوارد سعيد عندما صرح «بأن دراسة العلاقة بين الغرب والعرب لا تهدف إلى فهم علاقة طرفين غير متكافئين؛ بل هي أهم من ذلك كونها تعتبر نقطة دخول لدراسة تشكل الممارسات الثقافية الغربية ذاتها، ودراسة معناها»(**إدوارد سعيد(2004م)، ص251)**، ومن ثمّ فهو يحثنا على ضرورة مراعاة التفاوت في القوة بين الغرب وغيرهم؛ لنفهم فهمًا دقيقًا الأنواع الثقافية الغربية كالرواية والكتابات العرقغرافية والتاريخية وبعض أنماط الشعر والأغاني،.....إلخ.

ووفق ما يذهب إليه إدوارد سعيد "تصادم الدوائر الثقافية مثل الأدب والنظرية النقدية؛ يؤدي إلى تقنيع القوة وإخفاء مدى تقاطع تجربة الطرف الأقوى مع الأضعف، واعتمادها عليه بكل ما في ذلك من غرابة، وقدم أمثلة نموذجية تشرح هذا الوضع تمثلت في رواية "اللا أخلاقي"ل جيدْ1902م، و"موت في

البندقية"لتوماس مان،... عبر أصحابها عن علاقة فرنسا بشمال إفريقيا وعن أوجه التعصب للقوة في التأثير في إفريقيا، وإحدى تلك الأوجه الاحتفاء بأن فرنسا هي من كتب تاريخ شعوب إفريقيا، وفي هذا الصدد يقول ميشيل-باحث نورماندي وبروتستانتي"**(المرجع نفسه، ص251- ص252،بتصرف):** «إن أهل إفريقيا وخاصة أولئك العرب، لموجودون ثمة وحسب؛ ليس لهم فن أو تاريخ تراكم <عبر الزمن> و ترسب في أعمال وهو ما كان سيكون بذي بال لولا المُلاحِظ الأوروبي الذي يشهد على وجوده...»**(المرجع نفسه،ص252)** والواقع والحقيقة الفعلية تشهد بنقيض ذلك تمامًا فأوروبا وفرنسا تحديدًا هي مَنْ محت الذاكرة التاريخية والثقافية لمجتمعات الشعوب التي استعمرتها، وأصرت على خلق واقع جديد فيها يماثل ما تركوه في دولهم التي جاءوا منها غزاة لشعوب إفريقيا وآسيا، ومن أجل ذلك حطموا ثقافة وحضارة الإنسان المختلف عن النموذج الأوروبي في كل مكان.

كما نجد في رواية الطرحان أيضًا عدول وانزياح عن الأفكار التي قدمتها الروايات الأوروبية التي مثلت وجهات النظر الأوروبية تجاه إفريقيا وشعوبها، ونتج عنها في القرن العشرين ما سُمي بـ"**الأفريقانية** أو **الإنشاء الأفريقوي**، وهي ذات لغة خاصة بالحديث عن إفريقيا ودراستها من أجل الغرب، ومرتبطة بتصورات تشتق من الأصل الأفريقي، وهي امتيازات معرفية خاصة مثل :القبلية، الحيوية، الأصالة، وقد وُجدت هذه اللغة في كتابات كل من: كونراد، إسحق دنيس، ليوفرو بينيوس وهو عالم أنثروبولوجي ادعى أنه اكتشف الترتيب الكامل للنظام الإفريقي، ونجدها أيضاً عند"بلاسيد تمبل"صاحب كتاب **"فلسفة البانتو"** والتي يعتقد أنها تُشكل قلب الفلسفة الإفريقية."**(المرجع نفسه، ص252، بتصرف)** وما ورد في الرواية المعالجة في هذا المقام-الطرحان- عبر عن الصورة المثالية في الالتزام بالروح الوطنية، والتمسك بالهوية الثقافية النابعة من الأصل والأصالة المحلية، ولم تساير ما كتبه الأوربيون عن مجتمعات البلدان التي احتلوها وراء البحار، والتي أخضعت الأرض وأهلها لخدمة مصالحها التجارية والاقتصادية والنووية، ومارست فيها مختلف أشكال الجور والتعسف والحروب والعنف الفظيع، ونكلت بتلك الشعوب الضعيفة في سبيل نهب خيراتها، والتسابق على قيادة العالم وحيازة السلاح الأقوى، تلك القوة المتغطرسة التي قتلت الأبرياء في الجزائر و الفيتنام وغيرهما من المستعمرات لنيل الزعامة، وعاثت في الأرض فسادًا، وظلمًا وقهرًا للآخرين الضعفاء، وغصبًا لأوطانهم وحقوقهم الإنسانية في الحياة الكريمة والحرية.

وهنا حري بنا الإشارة إلى أن **الاستعمار الأوروبي** في **إفريقيا وآسيا** كان **آخر عدو** للإنسان والثقافة والحضارة، وحاول أن يجهز على حضارة شعوب مستعمراته بقمع ثقافتها وإعدام المثقفين، وحرق مخطوطاتهم ومؤلفاتهم، ومحو تراثهم المحلي، وتضييق الخناق عليهم أثناء ممارستهم لعاداتهم وتقاليدهم

التي ورثوها عن أجدادهم، وراح ينعتهم بأنهم لا حضارة لهم ويقدم لهم النموذج الغربي الذي فرضه عليهم عنوة ووضع حدودًا بين حضارته التي مجدها وحضارة تلك المجتمعات؛ على الرغم من "أن المسافات البعيدة لم ترسم حدودًا ما بين الحضارات، اللهم إلا تلك المفتعلة التي لم تكن تُردم إلاّ بشن حروب كبرى وقطع حد لاستمرار الحضارات عمدًا، فلم يكن الاسترالي الأصيل ليمتنع عن التداوي على طريقة المصريين القدامى فيما لو انتفضت التخوم وساد التواصل فالثقافة هي الصورة المتبقية عن الحضارة؛ لكنها في كل الحالات ليست بالضرورة الحضارة، إن المجتمع الوحيد الذي تتماهى عنده الحضارة بالثقافة هو المجتمع المدعو بدائي؛ أي: المعزول تمامًا عن الحضارة الكبرى جغرافيًا وثقافيًا وذهنيًا حيث تختلف ثقافته عن ثقافة الآخر ، فثقافة الإنسان المدعو بدائي هي مادة رؤيته وتصوره للعالم، وهي أيضًا وافده المعنوي الذي يتماهى بشكل عجيب مع أدواته وآلياته وتقنياته التي تصبح هي الأخرى مدار أساطيره وتخيلاته وأيضًا المجتمع المتفوق حيث تتماهى ثقافته مع ابتكاراته فتكون ثقافته وحضارته في وضع حلولي، فالأول لأنه يتواجد في سبيل العزلة، والآخر لتبوئه مركز القيادة، وقد تتمكن الثقافات الأخرى من الاندماج والتماهي بشرط الاندماج الدينامي الذي يجعلها في وضع الشراكة، لا الإتباع أي: الثقافة التي تستطيع إعادة خلق الحضارة وتكيفها مع ثقافتها." **(إدريس هاني(2001م)، ص 93، بتصرف)**

وبين الثقافة والحضارة علاقة عموم وخصوص، فكل ثقافة ليست بالضرورة حضارة ، وكل حضارة هي بالضرورة ثقافة، وهذا لا يعني أن" الثقافة حينما لا تكون هي الحضارة لا تتمتع بوجود حضاري، فكل الثقافات التي لا تعيش العزلة تتمثل حضارة الغالب بنحو من الأنحاء، وهنا نفرق بين مستويات ثقافية أربعة إزاء مفهوم الحضور:

1- مستوى الحضارة، أي حضور أقوى، حيث تغدو العلاقة بين الثقافة والحضارة علاقة حلولية.

2- مستوى التحضُّر أي حضور غير تام، حيث الحضور الثقافي مندمج بنحو الشراكة والانخراط في الدورة الحضارية.

3- مستوى الاستحضار أي حضور أدنى؛ حيث الحضور الثقافي مستهلك في وهم الأنا أو الآخر، حضور استهلاك.

4- مستوى الاحتضار أي حضور مفارق تمامًا حضور المدارات الحزينة.

فأمَّا الأول قوامه الإبداع والإنتاج، وأمَّا الثاني قوامة إعادة الإنتاج، والثالث قوامه الاستحضار والاستهلاك، والرابع لا يدخل في الدورة لا منتجًا ولا معيدًا للإنتاج ولا مستهلكًا فهو يعيش على هامش الحضارة، حضارتنا."**(إدريس هاني(2001م)، ص94، بتصرف)** والملاحظ وما تثبته الوقائع التاريخية عبر

حقب مختلفة من الزمن أن الحضارة التي رامت الإمبريالية الأوروبية فرضها على شعوب إفريقيا وآسيا كانت حضارة صممت على إبقائهم في المستوى الثالث والرابع أي مستوى الاستحضار والاحتضار أي حضورهم بصفة دونية، وثقافيًا يكونون في وضع المستهلك لما أنتجته الثقافة الأوروبية، إضافة إلى ربطهم بالمدارات الحزينة والمعاناة والعوائق التي تقف أمامهم في أي تقدم يسعون له في مجالات الحياة المختلفة، خاصة الاقتصادي والعلمي والتكنولوجي حتى تبقى تلك الدول سوقًا تجارية مفتوحة للأوروبيين لترويج منتجاتهم.

تكالبت أوروبا الاستعمارية على دول ما وراء البحار ونفت «أن التفوق العرقي سمة عامة للحالة البشرية، وإنه النظير الذي يجسد المركزية الإثنية على مستوى مجموعة التركيز على الذات التي تحفظ الروح الفردية، ومثل هذا التفوق المعمم لا يتعارض مع وجود نواح من الإحساس بالدونية ومع الاعتراف بعوامل القصور والتشكك في الذات ونقد الذات، ولكن على مستوى آخر فهو ينشأ بقدر من الوضوح الخاص في المواقف الجماعية على نحو ما يعبر عنه جون أوف غونت في الاحتضار.»**(غودي جاك(2008م)، ص10-ص11)** الذي كانت أوروبا تسعى على أن تجعل شعوب المعمورة ودول العالم الثالث خاصة التي خضعت لسيطرتها تعيشه، ومصيرًا محتومًا لوجودها تبقى فيه تدور في أدنى مستويات الحياة، تتكبد المعاناة والانتكاسات الاقتصادية والاجتماعية والنفسية في قوقعة الدونية والقهر والعذاب والسلب والنهب لممتلكاتها الطبيعية والصناعية، و**فرنسا** جسدت **آخر عدو** بالنسبة للأفارقة والآسيويين والجزائريين على وجه الخصوص، الذين عانوا من أبشع صور الاضطهاد والجرائم في حق الإنسانية خدمة لمصلحتها وحسب، يقول الروائي عبد الله كروم في روايته«**فرنسا الاستعمارية لا تفكر إلاَّ في مصالحها، في توسعها، في إنعاش اقتصادها وتصدير الفحم إلى أوروبا، تسعى للعظمة والهيمنة على حساب الضعفاء، وحتى عندما تقوم ببعض الإنجازات فهي ليست لعيون الجزائريين أو الأهالي كما تسميهم، ولذلك لما أنجزت السكة الحديدية من وهران لبشار ولعًا في بريق الفحم الحجري لأجل عيون الذهب الأسود، بل الأكثر من ذلك أن المستعمرين كانوا يتفاخرون بأن مدينة بشار صُنّفت ضمن أوائل المدن الأفريقية التي أوقدت المصباح الكهربائ، وليس ذلك لحبٍ في بشار وأهل القنادسة، إنما وقع ذلك لتمد مصانعها في أوروبا بهذه المادة الحيويّة على حساب الإنسان البسيط والأرض والكرامة.»(كروم عبد الله(2022م)، ص140)** وأحرقت الإنسان والأخضر واليابس دون أدنى رحمة، أو ضمير إنساني، وأذاقت الشعب الجزائري أشنع أنواع العذاب والموت وأزهقت أرواح أبنائه ظلمًا وعدوانًا في مجازر ارتكبتها في كل مناطق الجزائر.

5- رو اية الطرحان والانفتاح والتفاعل والتعايش مع الآخر وثقافته

قدّم المبدع في الرواية طرحًا ينم عن وعي وبصيرة بالتفاعل الحضاري الفعال مع ثقافة الآخر ووجهة نظره اقتربت إلى حد بعيد من الرأي الذي يذهب إلى أن مجتمعنا العربي المعاصر «لا يمكن أن ينطلق إلى تأكيد ذاته وثقافته من خلال مرجعية خارجية مستمدة من تاريخ مغاير، ومن فكر وافد، مع مرحلة استعمارية ولَّت بأسلحتها وعتادها وبقيت استعمارًا ثقافيًا وعقليًا واقتصاديًا يفسره واقعنا المتردي الذي تنكر لهويته التاريخية وحضارته، ومن ثم يغدو النهوض من خلال تأكيد الذات هو الخيار الحضاري الوحيد أمام كل البدائل الفكرية التي يروّج لها سدنة الغرب في واقعنا العربي المعاصر.» **(أبو الفضل منى وعبود أميمة والخطيب سليمان(2008م)، ص130)** خاصة في عصر العولمة.

ونجد في رواية الطرحان دعوة للتمسك بالهوية والمرجعية الأهلية للتأكيد على وعي الذات بالمثيرات الأجنبية في مواجهة ما يقدمه الآخر والانفتاح على حضارته، فعلى الرغم من الأفكار والمعارف التي أكتسبها البطل السباعي من تفاعله الثقافي مع الثقافة الفرنسية التي علمتها له مدام ناري دي برمون أو بالأحرى نادين التي فتحت أمامه نافذة التواصل مع الثقافة الغربية الأوروبية؛ إلاَّ أنه لم يتماهى معها حد الذوبان، وبقي وفيًا مخلصًا لانتمائه وعقيدته وثقافته المحلية وما غرسه فيه جدة أحمد الكعوي، وما علمه له الطالب قلوش، واستجابته كانت منطقية عقلانية بالرغم من أن تلك الأفكار الجديدة كانت "في أوسع معانيها نظامًا للإدراك الإجماعي يحدد عناصر السلوك الفعال، وذلك عن طريق الاقتداء بالنماذج البراقة التي تشكل نبض التواصل الفكري في عالم الثقافة الأصلي(أوروبا)، وهذا يعني أن نشاطه الفكري لابد أن يعبر عن الانتماء لهوية ما"(**المرجع نفسه،ص 132، بتصرف**)، اختار البطل السباعي فيها هويته المحلية الأصلية وبقي متشبث بها، بكل ما لها من أسس ومقومات، واقترب من النموذج المثالي الذي تحدده هويته الثقافية ويشكله انتمائه الحضاري، فتواصله مع الفرنسية نادين وثقافتها، ومن قابلهم في الفيتنام وثقافتهم لم يؤثر في قيمه المجتمعية في التحاور والتفاعل مع الآخر، بل ازداد توغلًا في فعالية نشاطه الفكري والإنساني في الغربة المحلية(حموديا برقان) في محيطه بالجزائر ومجتمعه الصحراوي وأمته العربية الإسلامية، وغربته في الخارج في الفيتنام تحديدًا في المدرسة التي كان يدرس فيها الأطفال.

وتبنى موقف التسامح والتعايش مع الآخر سلميًا **فنادين** على الرغم من أنها كانت من دولة تعتبر غريمه وعدوته(**فرنسا**) التي أذته وأذت أهله وشعبه وخربت وطنه الجزائر ورمته في حرب لاندُوشين إلاَّ أنه اتخذ منها موقفًا إيجابيًا وإنسانيًا وحضاريًا ليس لأنها كرهت العنف والحرب مثله، ولكن لأنه تشبع بالثقافة العريقة والأخلاق النبيلة والقيم الإنسانية التي تلقاها في محيطه الذي عاش فيه، ولأنه تسامى إلى

أن الإقرار بالاستفادة والانتفاع من الآخر حتى ولو كان من جلدة العدو لا يعد نقيصة ولا إهانة أو ذوبانًا في ثقافته بل ضرب من الحوار والتثاقف الإنساني الراقي، وعبر عن ذلك في نص الرواية«**فيما يخصك أنت-نادين- فإنني عاجز عن رد الجميل إليك، مثقل بفضلك، مشبع بإحسانك، صدقيني! كل معاجم اللغة لم توفر لي –لحد الآن- الكلمة المناسبة التي توفيك حق شكرك وتكافي لك جزاء إحسانك عجزت وعجزت اللغة معي...شمخت نخلة أثمرت بالخيرات وتساميت شمسًا أضاءت عتمة الصحراء ونورًا أنقذني من ظلام الجهل وإغلاقه، وفتحني على العالم و أنواره. الفرنسية التي تعلمتها منك غنيمتي في هذين الحربين وبها تواصلت هنا مع الناس، المجد لك واللعنة على الكولونياليزم.» (كروم عبدالله(2022م)، ص205).**

وبالإجمال لما جاء في هذا البحث تبين لنا بأن الرسالة المعرفية والثقافية التي حملتها رواية الطرحان ركزت على بث روح التواصل الحضاري مع الآخر والانفتاح العقلاني على ثقافته، وحثت على التعايش سلميًا مع الآخر في أي بقعة من الأرض بروح الإنسانية، وفي الطرحان أبرز المبدع الثقافة الفرنسية في شقها الآخر لدى المثقف السلمي المناهض للحروب وخطاب العنف؛ الذي قادته دولته فرنسا في الدول التي استعمرتها وألحقت بها دمارًا وخرابًا لا يمت للإنسانية بصلة لا من قريب أو بعيد. وعلاوة على أن ذلك الزمن ولى، وتلك كانت مرحلة مرت بها المجتمعات آنذاك، إلاّ أن المبدع كانت له نظرة استشرافية لحياة أفضل للبشر في جو يسوده الأمن والسلام والتواصل مع الآخر، بعيد عن العنف والحروب الدامية التي لم تجر على الإنسانية إلاّ الخراب والدمار والموت والعاهات،...وغيرها.

وفعلًا نحن في عصر التكنولوجيا والتقنية والتقدم العلمي والغزو الثقافي علينا التفاعل مع ثقافة الآخر. والتواصل معه بوعي وعقلانية؛ ونتعامل معه في حدود التبادل والتشارك في المصلحة والمنفعة وفق حدود يرسمها التمسك بقيمنا الأصلية وتقاليدنا وعاداتنا، وعدم الانسلاخ من هويتنا الجزائرية مجاراة لما تطرحه العصرنة والعولمة ويحتمه علينا الواقع المعاش؛ فحاضرنا يجب أن نعمل على تواصله مع ماضينا وخصوصيتنا الثقافية العربية الإسلامية المنبثقة من تراثنا الثقافي العربي الإسلامي يجب أن نعمل على تعزيزها، حتى نثبت وجودنا وذاتنا الأصلية في هذا العصر الحالي والمستقبل الآتي، فمستجدات الحياة تحتم علينا الاقتناع والوعي بحقيقة "إن الثقافات والديانات مدعوة اليوم أكثر من أي وقت مضى للحوار الدائم وتعزيز التعايش، وإغناء بعضها بعضًا؛ بعيدًا عن كل توتر أو احتقار، وعبر سلسلة من الإسهامات المتبادلة المبنية على القيم والمبادئ الكونية المشتركة بينها، والمتمثلة في قيم الحب والإخاء والتسامح والاحترام المتبادل والتضامن والعدل، وهي قيم ينبغي الارتقاء بها وترسيخها في الضمائر والسلوك باعتبارها

إرثًا إنسانيًا مشتركًا؛ وذلك عبر حوار حقيقي بين الثقافات والديانات، وانطلاقًا من ذلك علينا التمسك بذاتيتنا الثقافية وهويتنا الحضارية والدفاع عنهما، في إطار التفاعل مع الثقافات والحضارات الأخرى، وعلينا كذلك مراجعة أسس النظرة إلى الآخر، والابتعاد عن الصور النمطية للشعوب وثقافاتها وحضارتها، وأن نعي أنه ما دام الإسلام منهجًا وسلوكًا إنسانيًا، والثقافة تعبيرًا عن عبقرية شعب فلا وجود لثقافة راقية وثقافة منحطة، فلكل ثقافة عبقريتها الذاتية وغناها المتميز وحكمتها الخاصة، مما يستدعي التأكيد على أن نتعاون مع جميع الحضارات الإنسانية لما في ذلك من الخير للجميع، وأن نفهم بأن التنوع الثقافي ثروة ينبغي أن لا تكون مصدرًا للنزاع والتوتر ونبذ الآخر بل سبيلًا إلى توسيع الأرضية المشتركة، ودعم فرص التوافق والتلاقي وحل النزاعات بالطرق السلمية."**(بن نصيب منيرة(2011م)، ص 142- ص143، بتصرف)** حتى نرتقي إلى مستوى التعايش الإنساني الراقي مع الآخر، وتنجح المجتمعات في تحقيق التواصل الثقافي الذي ينعكس إيجابيًا على مختلف مجالات الحياة، في هذا العالم الذي أصبح اليوم قرية كونية، تؤثر فيها التكنولوجيا والتقنية ووسائل التواصل الاجتماعي والآلات الذكية وحيازة السلاح تأثيرًا كبيرًا، وطرحت رهانًا مستجدًا في هذا العصر أمام روح الإنسانية وقيمها السامية في التعايش بين البشر؛ على الرغم من اختلاف الأصقاع التي يتواجدون عليها جغرافيًا، واختلاف ثقافاتهم ودياناتهم ومعتقداتهم وعاداتهم وتقاليدهم وأساليبهم في العيش.

6- خاتمة

الحديث عن ثنائية الأنا والآخر في الأدب المعاصر يطول، وربما لا تكفي هذه الورقة البحثية للوقوف عند جميع حيثياته، والإلمام بجميع جوانبه تحليلًا ونقدًا وتفسيرًا، ولكن في هذا البحث أردنا تسليط الضوء على هذه الثنائية في الأدب الجزائري خاصة في السرد الروائي الذي اخترنا منه رواية الطرحان موضوعًا للدراسة ونلخص ما توصلنا له من نتائج في النقاط الآتية:

1- عالجت الدراسات الأدبية والاجتماعية والثقافية قضية الأنا والآخر وطرقتها من زوايا مختلفة.

2- في الأدب المعاصر العربي والأفريقي تناولت الروايات الاستعمار الأوروبي كآخر وقامت بنقده.

3- تبنت الرواية الجزائرية كغيرها من الروايات الشرقية التي ألفها مشارقة دحض نظرة ومفهوم الإمبريالية الأوروبية عن تدني الشعوب الإفريقية والآسيوية، واستنكار أنها لا حضارة لها، بالالتفات إلى تنوير جوانب من تاريخها وثقافتها.

4- رواية الطرحان عبرت عن نموذج عقلاني في التواصل الاجتماعي والثقافي مع الآخر، والانفتاح الراشد على ثقافة الغير، وتبنت فكرة التعايش السلمي مع الآخر الذي ينظر لأنا غيره بموضوعية وإنسانية،

ويتعامل معها بمنطقية قائمة على تقبل الآخر وعدم تهميشه أو إقصائه مهما كان مختلف عن الذات في جوانب حياتية متنوعة، والسعي لتحقيق حوار ثقافي معه مبني على أساس التبادل والمشاركة، وتحقيق الاستفادة والمنفعة للذات وللآخر بعيدًا عن تعنيفه أو الانتقاص من مكانته أو تهميش هويته.

قائمة المصادروالمراجع

- **المؤلفات:**

1- إدريس هاني،(2001م)، المفارقة والمعانقة رؤية نقدية في مسارات العولمة وحوار الحضارات، الدار البيضاء – المغرب، المركز الثقافي العربي ، ط1.

2- إدوارد سعيد،(2004م)، الثقافة والإمبريالية، تر:كمال بوديب، بيروت – لبنان، دار الآداب، ط3.

3- أندرو إدجار وسيدجويك،(2014)، موسوعة النظرية الثقافية:المفاهيم والمصطلحات الأساسية، تر: هناء الجوهري، القاهرة- مصر ،المركز القومي للترجمة، ط2.

4- كروم عبد الله (2022)، الطرحان، برج بوعريريج- الجزائر ، دار خيال للنشر والترجمة، (د.ط).

5- كمال شلغين عهد،(2015)، الهوية العربية صراع فكري وأزمة واقع دراسة في الفكر العربي المعاصر دمشق- سوريا، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، ط1.

6- غودي جاك،(2008)، الشرق في الغرب، تر: محمد الخولي، بيروت- لبنان، المنظمة العربية للترجمة ومركز دراسات الوحدة العربية، ط1.

7- الموسري محسن جاسم،(2005)، النظرية والنقد الثقافي، بيروت- لبنان، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1.

8- أبو الفضل منى و عبود أميمة و الخطيب سليمان،(2008)، الحوار مع الغرب آلياته- أهدافه- دوافعه، دمشق- سوريا، دار الفكر، ط1.

9- هومي.ك.بابا،(2004)، موقع الثقافة، تر: ثائر ديب، القاهرة- مصر، المجلس الأعلى للثقافة، ط1.

- **الأطروحات والمذكرات:**

1- صوافي بوعلام،(2014-2015م)، محددات الأنا والآخر في المتن الروائي الجزائري الجديد، إشراف أحمد مسعود، دكتوراه، قسم اللغة والأدب العربي، كلية الآداب والفنون، جامعة أحمد بن بلة وهران- الجزائر.

2- وافي حليمة،(2016- 2017م)، صورة الفرنسي في الرواية الجزائرية المعاصرة، إشراف فرعون بخالد، دكتوراه، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب واللغات والفنون، جامعة جيلالي اليابس، سيدي بلعباس- الجزائر.

3- ربيعي هجيرة،(2019- 2020م)، صورة الآخر في الأدب الجزائري المعاصر، إشراف بوعزيزة على، ماستر، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب واللغات، جامعة ابن خلدون، تيارت- الجزائر.

- **المقالات**:

1- بوصفصاف عبد الكريم،(2016م)، المرأة بين الماضي والحاضر في إقليم توات، مجلة الحوار الفكري، مخبر الدراسات الإفريقية للعلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة أحمد دراية أدرار، السنة الحادية عشرة، ع 11.

2- بن نصيب منيرة ،(2011م)، الإسلام ومفهوم حوار الثقافات، مجلة الإنسان والمجتمع، جامعة أبوبكر بلقايد، تلمسان- الجزائر، العدد02.

- **مو اقع الانترنيت**:

1- بولشعب حكيمة، تحديات الهوية الثقافية العربية في ظل العولمة، جامعة جيجل، الجزائر، http://algerie5.blogspot.com ،2018م/05/02/14:48،

2- وارم العيد، البعد الثقافي للعولمة وأثره على الهوية الثقافية للشباب العربي،http://jilrc.com/ 2018/05/02/14:30.